مصر بين الإصلاح و الاصطلاح

صخب وحشد .. احتقان واستقطاب.. ترصد للآخر وبحث عن الضد.. بل وخلق للضد إن لم يكن حقًا كذلك..

هذا هو ملمح الركن الأكثر ظهورًا فى المجتمع المصري الآن.

على مدار عام أو أكثر تنتهك فيه قدسية المشهد الوطني لثورة ٢٥ يناير. تقتحم بالمصالح السياسية الضيقة للبعض.. وبالأحلام المؤجلة للمشاركة فى السلطة (مع يقين بمحدودية الكفاءة) للبعض الآخر.. وبإرث نفسي حقيقي من المعاناة والألم لفئات بعينها، بألسنة مرسلة وعقول مغيبة أو بالأحرى مسجونة يريد كل من هؤلاء أن يدافع عن عموم المصريين- صانعو مشهد الثورة – ثمن المصالح والأحلام والمعاناة. يريدونهم قبولاً باستبداد جديد – وإن لم يكن استبداد حاكم قاهر- فهو استبداد رعونة.. أو جموح الطموح .. أو حماقة فى الوعي السياسي أو الإنساني.

ومن عجب أن كل جلادي المشهد من صناعي الاحتقان والاستقطاب والمترصدين بالآخر ..هم أيضًا ضحايا بلاشك هم ضحايا أربعين سنة من تململ الهوية ونزع لإنسانيتهم ..وستون سنة من الأسر فى المصطلح وقرابة خمسمائة سنة أو أكثر من غياب مجتمعاتهم عن المشاركة الحقيقية فى الإنتاج الفكري الإنساني .

أربعون سنة أو أكثر ومصريتهم تستحق .. ويراد أن يكونوا شراذم فى مجتمعات بديلة مفتتة ليس لها حظ من المصرية إلا الوجود فى الحيز الجغرافي المصري . أما من حيث الهوية فحبذا لو كان هذا مجتمع «مسلم» وهذا «مسيحى» وهذا «حضري» وهذا «قبلي» ومنها يصنع «الضد».

وأولى خطواط صناعة الضد هى التصنيف وأنجح وسائل التصنيف هى الاصطلاح ثم الشعار والتنابذ به وتغييب المفهوم .أول سور يقام بين الشركاء هو «المصطلح» أو «المبنى» دون «المفهوم» أو «المعنى» . وبيدأ التنادي فهذا «إسلامي» وهذا «ليبرالي» وهذا «علماني» وهذا «حداثي» وهذا «سلفي» ويكون التكريس هنا هو لمعنى «الضد».

من ضد من ؟ واقعيًا الكل ضد الكل بل وضد نفسه دون أن يشعر .فمن تحدث عن شخص كونه إسلامي من موقعة كـ«ليبرالي» على أنه ضده فقد نزع عن لبيراليته ضمير الدين والذى هو جوهر الإنسانية فى كل حرية . ومن تحدث عن حدثي أو ليبرالي من موقعة كـ«سلفي» أنه «الضد» فقد نزع عن نفسه واجب اقتفاء الحكمة والتى هى ضالة المؤمن يفعل هذا بجمود أسر فى مصطلح الحداثة ويتجاوز قاعدته الفقهية الملزمة بأنه «لا مشاحة فى الاصطلاح». وهكذا الأسر فى المصطلح يبدأ بحجب المعنى والمفهوم وينتهى بالإعراض عن الحكمة والتى قال فيها ربنا تبارك وتعالى «ومن أوتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرا»، فالباحث عن المفهوم والمعنى يفكر بعقله .. والمستغرق فى المصطلح والمبنى يفكر بعاطفته .. والمسجون فى الشعار يفكر بأذيته.

وكأن أحمد شوقي فى رائعته مصرع كليوباترا يصف مشهدًا نعيشه وآن لنا أن ننهيه .. حين يقول واصفًا مجتمعًا انحدر من مجتمع بشر واع إلى مجتمع ببغاوات يسمع ويردد

إسمع الشعب (ديون) كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافًا بحياة قاتليه

أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه

ياله من ببغاء عقله فى أذنيه !!

مانقوله لكل فئة أو حشد أو جماعة أرادت لنفسها مكانًا فى مصر المقبلة .. هو أن الشعب المصري صاحب مشهد ٢٥ يناير باختلافه وتنوعه هو وحده صاحب مشهد الوطن المصري الجامع .كل فئة أو حشد أو جماعة أرادت لنفسها نمطًا تحيا به فهذا حقها وتلك حريتها وذاك شأن يخصها ولا تملك تعميمه حتى وإن أرادت شؤون البلاد.

ولكن من أراد أن يحيا ويحيي مجتمعًا مصريًا صحيحًا دولة مصرية راعية وقادرة .. فعليه أن يعي أنه جزء من كل، ووجوده فى المشهد المصري مشروطًا بدرجة رغبته وجديته فى أن يثري المشهد باختلافه عن غيره وإقراره بهذا

الاختلاف ضرورة حياة وحقيقة حياة، وخروجه من المشهد سيكون مقرونًا بكفره بفكرة الشراكة فى المجتمع وطموحه غير المشروع فى التغول عليه بنمطه، أو بمحاولة الاستبداد به بأي طريقة كانت.

الشعب المصري باختلافه وتنوعه.. سيتعاطف مع الطموح المؤهل ومع المناضل الملخص (حتى وإن غابت عنه الفطنة)، لكن لن يقابل بالطامح غير المؤهل أوصاحب تاريخ المعاناة الذي يمن بنضاله على وطنه .. ولن يقبل فى كل حال ومن أى أحد استبداد أيًا كانت مسوغاته أو ادعاءات حضوره.

ولنعلم يقينًا أن هذا الشعب صاحب مشهد ٢٥ يناير الذي صنف فيه المصري «إنسانًا» «حرًا» قبل وبعد كل شيء..هو السيد وهو صاحب الحل والعقد والأمر والنهي.. وهو بكل ألوان تنوعه حق لكل أبنائه بكل اختلافاتهم طالما اتفقوا في إنسانيتهم وحريتهم ومصريتهم ولا يوجد شعب آخر ولن يوجد شعب آخر.